

المرأة ومكانتها في الإسلام

الحسين وگاگ

أنطلق قبل كل شيء من قول الله عز وجل حين أقسم وقال في كتابه العزيز : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [سورة الليل، 1] لأن الأنسان حين يريد أن يتحدث عن موضوع تختلف الآراء في مدلولاته، ينبغي له أن يتدرج بالحديث عن موضوع مشابه له تتفق فيها ليكون الحكم في الأول المختلف فيه على نظام الحكم في الثاني المتفق عليه.

لهذا اخترت أن أستشير بهذه الآية الكريمة التي أقسم الله فيها بالليل إذا ستر بشبحه الوجود، مبرزاً مميزات الليل التي هي السكن والهدوء والراحة والاستقرار، ومستلزمات النهار التي هي الحركة والكدح والعمل والانتشار، ليستفيد الكون نفسه من هذه الزوجية ويتنعم بهذه النوعية التي أكدها الله حين قال : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾⁽¹⁾ ومستفسراً عن فائدتهما، وخطر انعدام أحدهما حين قال أيضاً : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ ﴿٢﴾.

ليتضح لي ولغيري بعد هذه الاستنارة أن الله أسبغ علينا نعمه، وأكرمنا برحماته، حين جعل الزمن مكونا من نوعين مزدوجين متكاملين، يقوم كل منهما بدور نستفيد منه، ونتمتع بمميزاته، وننمو بفوائدهما إلى حد لا يختلف فيه اثنان ولا يشك فيه أحد، وأنه حتى حينما يقودنا الغرور، ونحاول أن نتفلسف فنشبه الليل بالنهار، أو النهار بالليل، نكون قد خرجنا بالنوعين عن مهمتهما الأصلية المقدره لكل منهما أزلما، ويكون النظام المبني عليهما مضطربا وفاقد سره الفطري المعهود، وبعيدا عن معناه الكوني المنشود، يعود إلينا الفضل الرباني، ليقودنا إلى إدراك حكمته البالغة وقدرته الفائقة، في خلقه البديع لصنفي الإنسان الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ويطلعنا على أن هذا التخالف الحاصل بينهما، لا يمكن أن يحصل بمحض الصدفة من طبيعة بلهاء لا شعور لها، إذ ما ينبعث من الأجزاء الأصلية المتساوية طبعا في المني، وتكوين الولد من عناصر متناسقة، تارة ذكراً، وتارة أنثى، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، ومحكم لما يصنع، ومؤكد حكمته في وجود هذه الزوجية للجنس الإنساني، بأن هناك أشياء ترنو إلى كل نوع من جنسه، ليبرزها ويتحقق الغرض الإلهي من هذه الزوجية التي أمر الله بها وقدرها لإسعاد الكون، لعلمه أن النوع الواحد من جنس الإنسان لا ينفع، وأنه لم ينقسم إلى نوعين اثنين إلا لأداء مهمتين اثنتين، وأنه لو كانت المهمة واحدة، لظل الجنس واحداً، وانقسامه إلى نوعين، دل على أن كل نوع له خصوصياته في ذاته، فكما أن للزمان نوعين : الليل والنهار، كذلك للإنسان نوعين : الرجل والمرأة، والمبين دورهما بقوله تعالى : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، ليتحقق لهذا الإنسان الاستخلاف الموعود به وليؤمن بهذه النعمة المقدمة له في هذه الزوجية التي أبّت العقول المنحرفة أن تدرك معناها وفائدتها والغرض منها لحد الآن.

وإذا ظهرت الحكمة الربانية في حكمة وجود الزوجية في جنس الإنسان، فما على كل واحد من الرجل والمرأة إلا أن يعتز بمهمته في الحياة، ويقدرها حق قدرها، ليسعد في حياته المطبوعة على التنوع والتجدد في كل الفصول والأحوال، فكما أن الليل لا يستطيع أن يقوم بدور النهار، ولا النهار يستطيع أن يقوم بدور الليل، فكذلك الرجل والمرأة، فكل منهما غير مهيا فطريا للقيام بمهمة الآخر، وكذلك كل الأزواج المنبثة في الكون والتي يذكرها الله في سورة الذاريات⁽³⁾ بقوله : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، والتي ينادي الناس في سورة النساء إلى التدبر في أمرهم حين يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾⁽⁴⁾.

فعلة وجود الزوجية في الإنسان والحيوان والنبات إذن هو التكاثر للمحافظة على النوع، وليحفظ هذا النوع ويمتاز عن غيره، بين الله أن لكل نوع من الجنس مهمة يؤديها وأن يقف عندها، فإذا وقف عندها أمكن لكل نوع أن يؤدي مهمته بدون تعارض، بل بتنافس وتعاطف، والذي يفسد الأمر هو أن نوعا يريد أن يغير على مهمة نوع آخر ويتقمص مميزاتة، الشيء الذي من شأنه أن يحدث الفساد والاضطراب في نظام الكون الذي خلقه الله أزليا ليكون خاضعا ومنضبطا إلى يوم الدين.

وأمام هذا النظام الإلهي في الكون، لا يسه كلاً من الرجل والمرأة إلا أن ينصاعا لحكمة الله ويقبلا بإيمان صادق على القيام بدورهما في الحياة، بحيث لا ينبغي أن يتمنى الرجل أن يكون امرأة، أو تتمنى المرأة أن تكون رجلاً، لأن الله ينبيههما وينهاهما عن ذلك حين يقول : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾⁽⁵⁾ ولأن الرسول ﷺ يقول : «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»⁽⁶⁾ ولأن ذلك سيخرجهما عن النوعية المقصودة فيهما، وفي كل الأزواج المنبثة في الكون، وتصبح الحياة جحيماً لا يطاق.

وقد أراد أن يسود بينهما الرضا، وينشطا في مسيرتهما، فسوى بينهما في حرية الاعتقاد، ومكن كلا منهما من أن يعتقد العقيدة التي يقتنع بها حتى يقبل باختياره على منهج ما اعتقد، إذ المشترك الأساسي بينهما هو حرية المعتقد، وحرية تعقل الأشياء، وحرية الحكم عليها، ومن نال نصيبه من هذه الحرية، يدرك أن الأمر لله وحده، ومن أمعن النظر وتدبر قول الله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً نُّوحَ وَامْرَأَةً لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾⁽⁷⁾، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يومن بأن الله هو الفاعل المختار، ومن استرعى انتباهه ما ذكر في القصة الواردة في القرآن الكريم عن «بلقيس» كما في سورة النمل حين قالت : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وفي قولها : «مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون» وحين قال رجال جيشها : «قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُو بِأَسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكُمْ».

يجد هناك ما يؤكد أن للمرأة أن تفكر التفكير السليم، وأن تشير وتستشير، وأن تختبر طبائع الرجال، حتى تكون على بينة من أمرها، كما فعلت «بلقيس» مع سليمان حين بعثت إليه بهدية لتعلم حاله، وتعرف هل هو طالب دنيا، أن له مهمة أخرى، وحين عرفت رأيه حين قال : «أَتَمُدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا أَتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ»⁽⁸⁾ قال لهم «بلقيس» نذهب إليه، لأنه إنسان لا يريد المال، وله منهج دعوة.

والله يصطفي بعض النساء مثل ما يصطفي بعض الرجال، فقد اصطفى مريم، واصطفى أم موسى، وكلفها بأشياء فعلتها، ولهذا فالمرأة من حيث كونها جنسا محل الاعتقاد الحر، ومحلا لاستعمال عقلها في الأمور التي يعجز عنها الرجال، ومحلا لاصطفاء الله، فهي حرة في حياتها، حرة في رأيها فيمن تختار،

حرة في ملكيتها للأشياء، لكن مهمة الحياة موضوع آخر فهي السكن والمأوى، لأنها خلقت للمودة والرحمة كما قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽⁹⁾ ولأن الله قدر لنا منها البنين والحفدة بإذنه حين يقول : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾⁽¹⁰⁾.

وإلى هذه المعاني نفسها أشار (الكسيس كاريل) حين قال : «إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية، وعن وجود الرحم والحمل أو عن اختلاف طريقة التربية، وإنما تنشأ عن سبب جد عميق، وهو تأثر العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية، وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذي جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة، وأن يمارسوا أعمالاً متماثلة، والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل، فكل حجية في جسمها تحمل طابع جنسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية ولاسيما الجهاز العصبي، وأن القوانين العضوية (الفيزيولوجية) كقوانين العالم الفلكي، لا سبيل إلى خرقها، ومن المستحيل أن تستبدل بها الرغبات الإنسانية، ونحن مضطرون لقبولها كما هي، فالنساء يجب أن ينمين استعداداتهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة، دون أن يحاولن تقليد الذكور، فدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال فلا ينبغي أن يتخلين عنه»⁽¹¹⁾.

إذن، فالمهمة الأساسية للمرأة هي أن يسكن إليها الرجل المتعب، ولو قدرت هذه المهمة، لوجدتها تستوعب كل وقتها ليأتي ويجد البيت هادئاً ومستقراً وحافلاً بالحيوية، ومشجعاً على التكاثر الذي أراده الله في الحياة.

وقد أراد الله أن يجعل وعاء التكاثر في أرقى خلقه الذي هو المرأة وجعل مهمتها في التعامل مع الجنس الراقي الذي هو الإنسان كزوج وكجنين في بطنها،

وكوليد تحمله، وتعطي له المثل والتربية، في حين أن الرجل أراده أن يتعامل مع أجناس الحياة من أرض وغيرها من الأشياء الأخرى التي هي في خدمة الإنسان.

لقد أراد الله أن تكون طفولة الحيوانات كلها قصيرة، وأن تكون طفولة الإنسان أطولها حتى يكون لعمل المرأة أهميته في تعاملها الأساسي مع الإنسان، وطفولة الإنسان تتناسب مع مهمته، ومهمته عالية، فهو أرفع الأجناس على وجه الأرض.

والمرأة هي المدرسة الأولى للطفل، هي التي تعلمه وتربيته وتحنو عليه وترعاه، ليصبح يوما ما قائما بواجباته ومهامه في الحياة، ولن يستطيع أحد أن ينوب عن الأم في رعاية طفلها، لأن قلب الأم وحيد وفريد، وتحت رعاية هذا القلب ينمو وينضج ويتعزز، أما الطفل الذي تربيته الخادمت حين تغيب الأمهات عن البيت فأنتم تعرفون أحواله، الطفل الذي رضع أمه يكون صحيحا وعاقلا مهذبا، والذي رضع غيرها يكون ضعيفا مضطربا وفظا غليظ القلب وغير صالح.

رحم الله الذين كابدوا وتحملوا مشاق الحياج بصبر ورضا، حتى أتحفوا الوطن بإنجابهم المريح، أما الذين فكروا في زيادة الدخل لمستوى حياة أحسن في نظرهم قد أتعبهم تقديرهم، وجعلهم اليوم يحصدون ما زرعوا، ولله عاقبة الأمور.

والإسلام لا يمنع عمل المرأة، بل يشجعه، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر : كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكنت أسوس فرسه وأعلفه وأحتش له وكنت أخرز الدلو واسقي الماء وأحمل النوى على رأسي من أرض له على ثلثي فرسخ⁽¹²⁾، ولكنه دين واقعي، يدرك أن الذي خلق الإنسان يعرف أن هناك ظروفًا قد تضطر المرأة للعمل، والإسلام يقرر ذلك ويعرضه في حدود الضرورة وفي إطارها الذي بينه الله لنا في قصة سيدنا موسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين ووجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان وتمنعان ما

يرعيان من الماء، الأمر الذي جعل سيدنا موسى يسألها بقوله : ما خطبكما ؟ فكانت إجابتهما قولهما : لا نسقي حتى يصدر الرعاء، لأنهما أدركتا أنهما نوع لا يصح أن يحتك بالنوع الآخر - وهو الرجال - فانتظرتا أن تخلو البئر، ثم عللتا سبب الخروج بقولهما : «أبونا شيخ كبير».

وفي هذه الآية وضوح الضرورة التي ألجأت المرأة للعمل، والتزام المرأة بنوعيتها التي تمنعها من ازدحام الرجال كما وضحت الآية التي بعدها واجب المجتمع نحو هذه المرأة المضطرة للعمل حينما قالت : فسقى لهما، أي أعانها على أداء مهمتهما حتى تسرعان بالرجوع إلى البيت، غير مضطرتين إلى الخروج عن نوعيتهما التي لا يناسبها الازدحام مع الرجال في ميادين الأعمال.

وإذا كانت الضرورة تمكنها من لخروج للعمل، فهي مطالبة بأن تكون على هيئة غير مثيرة وأن تلتزم بالحدود التي تدل على جديتها، لأن التشريعات التي تنظر إليها لا تتعرض لعملية الإدراك ولا لعملية الوجدان، وإنما تتعرض لعملية النزوع.

ومعني هذا أن علماء النفس، قسموا مظاهر الشعور إلى ثلاثة أقسام حينما قالوا : أن الإنسان عند ما يري وردة جميلة في بستان، تتكون لديه إذ ذاك عملية إدراك فإذا أعجبه وأحبها، تتكون عنده عملية وجدان، وإذا وجد في نفسه أثرا لذلك الوجدان فيذهب ليقطفها تتكون لديه عملية النزوع، والتشريع إنما يتعرض لحالات النزوع، ولا يتعرض لحالات الإدراك والوجدان إلا في مسألة واحدة، وهي ما يتعلق برؤية الرجل للمرأة، لأنه ليس من الممكن أن تفصل هنا عملية الوجدان عن عملية النزوع.

وما هي عملية النزوع ؟ إنسان رأى امرأة جميلة، فهو إذ ذاك في عملية الادراك، وبعدما أدرك استقر في نفسه إعجاب، وهذا الإعجاب هو موتور داخلي،

أحدث في نفسه عملية نزوعية قوية، بحيث لا يمكن أن تفصل هنا العملية الوجدانية عن العملية النزوعية كما نفصلها في حالة الوردية، فلهذا يمنع الإسلام عملية الإدراك من الأساس، لأن الله سبحانه وتعالى المشرع الرحيم، والعارف بالنفوس وطبيعتها، يقرر ذلك حتى لا يعيش الرائي في قلق وتعب عندما حرم النزوع، لأن الفصل بينهما صعب، لذلك قال الله عز وجل : ﴿يُذْنِبِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، حتى لا تظهر زينتهن لغير رجالهن، في هذا التشريع رحمة لهن وتأمين لحياتهن الزوجية، بحيث لا يقلقن أحدا ولا يفسدن الحياة على أخريات ولا يقلقهن أحد، ولا يتعرضن للفساد من أخريات، والإسلام يكرم المرأة ويجعلها في مكانها وفي بيتها محترمة ومكرمة، يريد أن تكون زوجا تمثل السكن، وأما تمثل الحضانة لأشرف جنس في الوجود وهو الإنسان.

وليتحقق هذا التكريم ويعطي ثماره، كلف المرأة بأن تلتزم الوقار والحشمة وأن تعرض عن أمور التبرج والتبذل، كما تفعل النساء المومنات لمطابقات لأوامر الله عز وجل بمجرد سماعهن لها حين يقول : «وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ»، وحين يقول : «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» ولأوامر رسول الله ﷺ حين يرشد أسماء بنت أبي بكر التي دخلت عليه بثياب رقاق وقال لها : «يا أسماء : إن المرأة إذا بلغت المحيض لا يصح أن يرى منها إلا هذا» وهذا وأشار ﷺ إلى وجهه وكفيه.

تحدثت السيدة عائشة رضي الله عنها ووصفته بقولها : كانت النساء المومنات يشهدن مع النبي ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة، لا يعرفن من الغلس.

وهكذا الإسلام يريد من المرأة أن تعرف نفسها ومهمتها، وأنها أرقى من غيرها لتقبل على الالتزام بما يحفظ كرامتها ويقيها من شر غيرها لتعيش عيشة الراحة والاطمئنان.

وقد أعطى لها ألا تظهر سوى الوجه والكفين من أعلى والقدمين من أسفل وعليهن أن لا يبيدين زينتهن وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأن يتحاشين ظهورهن في ثوب الزينة، وأن يبتعدن عن الثوب الصفيق الذي يقول فيه الرسول ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها». ويجب على المرأة أن لا يكون ثوبها معطرا مبخرا، لأن الرسول ﷺ يقول : «إذا استعطرت المرأة، فمرت على القوم ليجدوا من ريحها فهي زانية».

والإسلام وضع منهجه في التربية لتحقيق غاية، لأنه نظام كامل للحياة، ولأن المسلمين أمة ذات رسالة، يقول الله عز وجل : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

فالعقائد والقيم والعبادات بأنواعها ما هي إلا وسيلة للتربية الزكية والمؤصلة إلى الخير والنجاح في الحياة، والله تعالى يقول : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، ويريد منهم أن يكونوا مجتمعا فاضلا يهتم بالأخوة، والتراحم والتعاون والقيام بالواجبات المشتركة لحماية الخلق الكريم، ونشر الفضل بين الناس أجمعين.

ولهذا كانت هناك قصة حجاب المرأة المسلمة في بدايتها الأولى في صدر الإسلام، لأن المرأة في عصر الجاهلية لم تكن لتلتزم بالحجاب لأن قضيته قضية عرفية مرة تضع على رأسها غطاء، ومرة لا تضع، وقد تتزين بغطاء الرأس كالخمار والنقاب والبرقع، وقد لا تتزين، بحيث لم يكن هذا الموضوع ذا أثر على الصعيد الاجتماعي⁽¹³⁾.

ولما ظهر الإسلام ظل الوضع على حاله بالنسبة للمرأة، إلا أن الذي لا شك فيه هو أن حجاب المرأة قد رافقه الاحتشام مع ظهور الدين الجديد، ويؤكد هذا الحديث الذي رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قریش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب فأذن له رسول الله ﷺ وهو يضحك، فقال عمر أضحك الله سنك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر فأنت يا رسول الله ﷺ أحق أن يهبن، ثم قال عمر : أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ قلن نعم أنت تعاملنا بالغلظة والفظاظة ورسول الله بالعكس، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك⁽¹³⁾.

وفي حديث آخر حول حجاب المرأة عن صالح بن كيسان قال : قال ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة قالت : كان عمر يقول للرسول ﷺ (احجب نساءك) قلت فلم يفعل، أي لم يأمر النبي ﷺ بالحجاب، قالت وكان أزواج رسول الله ﷺ يخرجن ليلاً إلى ليل قبل المناصع⁽¹⁴⁾، فخرجت سودة، وكانت امرأة طويلة، فرأها عمر وهو في المسجد، فقال عرفتك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب⁽¹⁵⁾. وسودة هذه هي سودة بنت زمعة زوجة رسول الله ﷺ.

وفي حديث ثالث عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة رضي الله عنها بعدما ضرب علينا الحجاب لتقضي حاجتها، وكانت امرأة جسيمة، تفرع النساء جسماً لا تخفى على من يعرفها، فرأها عمر بن الخطاب، فقال يا سودة والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت : فانكفأت راجعة، ورسول الله في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق، فدخلت فقلت يا رسول الله، إني خرجت،

فقال عمر كذا وكذا، قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإذا العرق في يده ما وضعه، فقال : «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك»⁽¹⁶⁾.

وبعد هذه المراحل نزلت آيات الحجاب منها قوله تعالى :

(1) ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(2) ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾⁽¹⁷⁾، وهما الخاصتان بعموم النساء والرجال، وتهتمان بغض البصر وحفظ الفروج وضرب الخمر على الجيوب. والقاضي عياض ينقل عن الشوكاني أن المرأة لا يلزمها ستر وجهها وهي تسير في الطريق، وعلى الرجال غض البصر.

وبعد هذه المراحل اتضح لنا أن حكاية حجاب المرأة بدأت منذ العصور الإنسانية الأولى ومع مرور الزمن، وقد اطلعنا على بداية نزوله، والأشكال والألوان والمعاني التي مر فيها، والأوساط النابعة منها، والأسلوب المتبع في شأنه بين يدي الرسول ﷺ وما عانتته نساؤه بعد نزوله، مما يؤكد ما ذهب إليه الشيخ الغزالي من أن الحجاب عادة وليس عبادة، وقد أيد هذا بما ذكره في كتابه : «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، ص 39-40 من أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ يقال لها : «أم خلاد وهي منتقبة، تسأل عن ابنها الذي قتل في إحدى الغزوات، فقال لها بعض أصحاب النبي مستغربين : جئت تسألين عن ابنك وأنت منتقبة ؟ فقال المرأة الصالحة : «إن أرزأ بابني فلم أرزأ في حيائي»⁽¹⁸⁾ واستغراب الصحابة رضوان الله عليهم من انتقاب هذه المرأة دليل على أن النقاب لم يكن عبادة بناء على الحديث السابق والذي نظم الإمام ابن عاشر مدلوله بقوله : وما عدا وجه وكف الحرة، يجب ستره كما في العورة.

وقد اعتادت النساء أن يتزين حتى بالنقب والخمر، فيصبح الحجاب بدوره لافتاً للأنظار على مذهب الشاعر الذي يقول :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا صنعت بالناسك المتعبد ؟
قد كان شمر للصلاة رداءه حتى وقفت له بباب المسجد

مكانتها في الإسلام

على كل حال فللمرأة مكانة مهمة في الإسلام، لأنها أهم مخلوق في حياة الرجل، فهي السكن والمودة والرحمة، ومحل اللذة وطريق الشهوة، وهي الأم الحنون الرؤوف التي يعجز الجميع عن القيام بدورها في الحياة، لأن رحمها مستودع الأبناء، وصدرها منبع الغذاء، وحضنها كنز الحنان، فلا رعاية لنشء بدونها، ولا تربية لأجيال إلا بها، لذلك رفع من شأنها منذ البداية، ولم يعتبرها المسؤولة عن خطيئة البشرية الأولى، شأن اليهودية والمسيحية، وإنما أخذ بمداول الآية الكريمة التي تقول : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى، وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى، فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾⁽²⁰⁾ وهو يرى أن خلاصة القول في الخطيئة البشرية الأولى هو ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾⁽²¹⁾.

وفي هذا المعنى يقول أستاذنا المرحوم السيد علال الفاسي ما يلي :

أما الإسلام فقد جاء مقوما لما اعوج من الدين وما طغى من جاهلية، فأعلن قبل كل شيء أن الغواية وقعت لآدم وحواء على السواء، أغواهما الشيطان، وأن الله تعالى تاب عليهما بعدما غويا وهدى، وأن الميراث الوحيد الذي يعترف به

القرآن هو عداوة آدم وذريته للشيطان وعداوة الشيطان لهما. والحياة البشرية على وجه الأرض صراع بين الخير الذي تمثله الإنسانية، والشر الذي يمثله الشيطان.

ولهذا فما على البشرية إلا أن تومن بأن الشيطان وحده الموسوس لأبيها آدم هو الذي بدأ القتال ضدها منذ البداية، وأن الذين أسرفوا ضد المرأة في اليهودية والمسيحية، إنما جرفتهم ثقافتهم الدينية، وألتهتهم عن الحقيقة الكبرى التي صرح بها الرسول ﷺ حين قال : «النساء شقائق الرجال»، وأن القرآن الكريم حينما وضع الأصل الذي تفرع منه الإنسان جعل المرأة شريكة فيه للرجل، وأن لا تفاضل بينهما من جانب الإنسانية، وأن التفاضل إنما يكون بما يكتسبه كل منهما من خلال التي ترقى به إلى المستوى الذي ذكره الله حين قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (22).

وقد كان من فروع الاشتراك في تلك العنصرية الإنسانية أن سمي الرجل والدا والمرأة والدة، ونادت التعاليم القرآنية برفعها فوق الرؤوس وأكدت على الإحسان إليهما والبرور بهما ومعاملتهما المعاملة التي يرتضيها الله الذي يقول : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (23)، وفي قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (24).

ولا يقف القرآن في هذا المقام عند حد التسوية بين الوالدين في واجب الإحسان والاحلال بل يخطو خطوة للوالد، ويتجلى ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (25) وفي قول الرسول ﷺ جوابا عن سؤال رجل : من أحق الناس بحسن صحبتي يا رسول الله ؟ قال : أمك ! قال ثم من ؟ قال : أمك ! قال ثم من ؟ قال : أمك ! قال : ثم من ؟ قال : أبوك (26).

وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الوالدين حتى لو كانا كافرين، والإحسان إليهما يقتضي دوام الصلة والخدمة والعطاء والكلمة الطيبة، والدعاء بالهداية لهما إن كانا ضالين وبالرحمة والمغفرة فيما وراء ذلك حسبما ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾⁽²⁵⁾، وقد اعتبر الإسلام السعي عليهما وإكرامهما بمثابة الجهاد في سبيل الله. ويؤكد هذا ما روي عن عبد الله بن عمر أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يسأله فيم يجاهد ؟ فقال له النبي ﷺ أحْيِ والدك ؟ قال نعم، قال : ففيهما فجاهد⁽²⁷⁾.

وفي هذا المعنى ذكرت أسماء بنت أبي بكر وقالت : قَدِمْتُ عَلَىٰ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ، إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفْأَصِلُهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ، صِلِيهَا⁽²⁷⁾.

وكان من تعاليم الرسول ﷺ أن يحبب الجنة إلى الناس، وأن يلفت نظرهم إلى أنها موجودة تحت أقدام الأمهات.

والإسلام يرحب بالأنثى منذ مولدها، ويعتبرها هبة من الله تماثل هبة الذكر وكل هبات الله متمثلة في إنجاب الإناث، أو إنجاب الذكور أو عدم الإنجاب بالمرة، لا تستحق إلا شكر الله الخلاق العليم الذي يقول في كتابه العزيز : ﴿اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إُنْثًا وَلِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾⁽²⁸⁾.

والذين يشكرون الله الشكر الصادق، يزيدهم من فضله، ويسبغ عليهم نعمه ويغدق عليهم الطيبات، ويمتعهم بالزوجات والأبناء والحفدة، جزاءً لهم على إقبالهم على الإنجاب الذي يباركه الله في كتابه حين قال : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾⁽²⁹⁾.

وإذا كان القرآن الكريم يرحب بالأنثى منذ مولدها، فإنه يسفه أعداءها الذين يقلقهم إنجابها إلى حد أن بلغ بهم السفه أوجه، حتى أصبح الأب يئد ابنته فيدسها في التراب حية بدون شفقة ولا رحمة، أولئك الجهلاء الذين عبر الله عن سوء فعلتهم بقوله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (30).

وفي هذا المعنى روي عن عمر بن الخطاب أنه قال : لقد عملت في جاهليتي عملين اثنين أحدهما يبكيني في الإسلام والآخر يضحكني، فالذي يبكيني هو أنني في يوم من الأيام أخذت ابنتي ووضعتها في قبرها موؤودة، وفي الوقت الذي كنت أحفر قبرها ليسعها، تنفض بيدها الغبار عن لحيتي اعتناء بوالدها الذي عزم على قتلها، أما الذي يضحكن فهو أنني اتخذت لي إلهًا صنعته من الحلوى، وفي بعض الأيام أضرب بي الجوع فأكلته.

وليست جريمة الوأد مقتصورة على البنت وحدها في البيئة العربية الصحراوية والفقيرة بل شملت الذكر أيضا في إطار قتلهم العام لذريتهم المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (31).

وأمام هذه الجاهلية الجهلاء والهمجية النكراء، علم رسول الله ﷺ للناس أن تربية البنات تربية حسنة وتعليمهن التعليم الصالح من الأعمال التي ليس لها جزاء في الآخرة إلا الجنة والنجاة من النار.

وكانت النساء يحتشدن لسماع النبي ﷺ والصلاة الجامعة معه من أجل التعلم والتربية، حتى خصص لهن - من الازدحام - بابا يسمى حتى الآن في مسجده بالمدينة باب النساء.

والمرأة بعد التربية الصالحة، تكون أهلا للمسؤولية، وهي لا تقل فيها عن مسؤولية أخيها الرجل، وهي ذات مسؤولية كاملة عن نفسها وعن عبادتها وعن

بيتها وعن جماعتها، وتقديرا من الله لعملهما ومسؤوليتهما، يشيد بهما ويجزيهما الجزاء الأوفى كما ورد في كتابه الكريم حين قال : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾⁽³²⁾ كما يكرمهما الله ويحتفظ لهما بعملهما ليكون معدودا في حسناتهما حين قال : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾⁽³³⁾.

وقد سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل، كما حد من طغيان الرجل وجعله بعضا من المرأة، وأدمجهما في لفظين اثنين : الإنسان والزوج المعبر عنهما لفظا في اللغة العربية، لتكون مساواتهما متحدة لفظا ومعنى، وليتعرفا على أحوالهما الشخصية، ويؤدبا واجباتهما الاجتماعية في إطاريهما العامين والشاملين كما وردا في الآيات التالية :

(أ) ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾⁽³⁴⁾،

(ب) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾⁽³⁵⁾،

(ج) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾⁽³⁶⁾،

(د) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾⁽³⁷⁾،

(هـ) ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾⁽³⁸⁾،

(و) ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء، 13].

وتتطور مسؤولية المرأة الخاصة في الإسلام إلى مسؤولية عامة فيما يتعلق بقيامها بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، والإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل، كما يقرنها مع أخيها الرجل في مسؤولية الانحراف عن

واجب الإيمان والإخلاص لله والمسلمين، وذلك كله واضح في قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (39).

وفي قوله تعالى : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (40).

ومن هذا يبدو أن الإسلام سوى بصريح هذه الآيات بين الرجل والمرأة في أكبر مسؤولية في نظره، وهي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس لها أن تكف عنها، اعتمادا على ظن أو وهم أنها خاصة بالرجال دون النساء، بل عليها أن تواكب في هذه المهمة، فلها دائرتها، وله دائرته، والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين، فإن تخاذلا، أو تخاذل أحدهما انحرفت عن سبيلها المستقيم (41).

وإذا كان الإسلام قد سوى بين الرجل والمرأة في المسؤوليات العامة فمن باب أولى وأحرى أن يحررها في شؤونها الخاصة، ويرفعها إلى منزلة الإنسان الحر، ويمنع زواجها بدون إرادتها، ويلغي من عقده كل الأوصاف التي تجعل منه عقد معاوضة.

ولهذا اشترطت الشريعة الإسلامية موافقة المرأة على زواجها وأصبحت بذلك طرفا في العقد بدلا من وليها، فقد روى الإمام البخاري عن امرأة تدعى خنساء بنت خدام الأنصارية، زوجها أبوها من رجل بدون رضاها، فأتت رسول الله ﷺ وشكت إليه أمرها فرد نكاحه.

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر، والبكر حتى تستأذن، فقالت عائشة : يا رسول الله : البكر تستحي، قال : رضاها صمتها »⁽⁴²⁾.

وللزواج في الإسلام مكانة سامية في حياة الفرد والأسرة والأمة، وقد نوه به القرآن الكريم، إلى حد أن رفعه فوق عقد تتم التزاماته بالإيجاب والقبول وشهادة الشهود، بل اعتبره ميثاقاً غليظاً، وعهداً قوياً، يتعذر حله، فيربط القلوب، ويحفظ المصالح، ويندمج به كل طرف في صاحبه، فيتحد شعورهما، وتلتقي رغباتهما، وتكون العلاقة الزوجية بذلك أسمى في معنى الترابط والاندماج من علاقات الصداقة والأبوة والبنوة.

ولكي يتضح ما نقول نقراً قول الله عز وجل : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَرًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾⁽⁴³⁾.

المرأة سكن الرجل، يجد فيها راحتَه ورضاء نفسه، والرجل سكن المرأة، تامن في كنفه، وتسعد بجواره، وبين الزوجين تكون علاقات نفسية وجسدية ذات طابع خاص لا مثيل لها في سائر العلاقات الأخرى، ومن ثم لا مجال هنا للحديث عن سيادة أو تسلط أو امتلاك، وإنما هناك تعاليم القرآن الذي يحض الرجل على التمسك بزوجه إلى أقصى حد، ويغريه بالصبر إذا ما طرأ على شعوره في بعض الأحيان نحوها بغض وكراهية، تنفيذا لقول الله الذي يقول : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

[النساء، 19].

والرسول ﷺ يؤكد على هذا ويقول : «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وفي الصحيحين : «لا يفرك المومن مومنة، إن كره منها خلقا، رضي منها آخر».

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشارة يداعب أهله، ويلطف بهم. ويوسع نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ قالت : «سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني، فقال : « هذه بتلك»».

ونحن إذا جئنا إلى إدارة البيت المسلم وما يتطلبه ليكون سكنا جذابا، نجد حديث الرسول ﷺ المروي عن عبد الله بن عمر في البخاري والذي يقول فيه : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته، والخادم راع ومسؤول عن رعيته»، كما نجد في موضوع الإنفاق وما قد يطرأ أحيانا عن أمساك بعض الرجال أيديهم مقابل إسراف بعض الزوجات، الحديث الوارد في البخاري والمروي عن عائشة رضي الله عنها والذي يقول فيه : «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا».

وفي هذا المعنى قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ : أن أبا سفيان رجل شحيح، فهل على جناح أن آخذ من ماله سرا ؟ قال : خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف.

وما أكثر النصوص التي أخذ بها رجال الفقه الإسلامي في إلزام الرجل بالإنفاق على زوجته، دون تمييز بين المرأة الميسورة والمرأة التي لا مال لها، ودون النظر إلى حالة الزوج عسرا أو يسرا، حتى أنهم أعطوا للمرأة حق الإفتراق عنه إذا قصر بالإنفاق عليها مهما كان معسرا⁽⁴⁴⁾.

وقد أكد هذا الإمام محمد شلتوت حين قال : ذلکم الحق الذي منحتة الشريعة الإسلامية للمرأة من نحو أربعة عشر قرنا فلم تبح للرجل أن يأكل من مالها فضلا عن تملكه التصرف فيه، إذا كان عن طيب نفس، مؤيدا رأيه بقول الله عز وجل : ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾⁽⁴⁵⁾. ويقول

الرسول عليه السلام : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء⁽⁴⁶⁾.

هذا ولقد حدث أن جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو خلق زوجته، فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها : وتخاصمه، وعمر ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل راجعا وقال : إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته، وهو أمير المؤمنين، فكيف حالي ؟ فقال عمر : يا أخي، أني احتملتها لحقوق لها علي : إنها لطباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها. ويسكن قلبي بها عن الحرام، فأنا احتملتها لذلك، قال الرجل : يا أمير المؤمنين، وكذلك زوجتي، قال عمر : فاحتملها يا أخي، فإنما هي مدة يسيرة⁽⁴⁷⁾.

وقد تكلم الفقهاء كثيرا في حق الرجل على المرأة، وحق المرأة على الرجل، والذي تهدي إليه الفطرة في شأن الزوجين هو ما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم بين علي وابنته فاطمة، قضى على ابنته بخدمة البيت ورعايته وعلى زوجها بما كان خارجا عن البيت من عمل، وعليها إذن تدبير المنزل ورعاية الأطفال، وعلى الرجل السعي والكسب.

وفي القاعدة التي قرر القرآن الكريم بها المماثلة بين الزوجين في الحقوق والواجبات، قرر على الرجل مسؤولية الهيمنة والقوامة، وجعله المكلف بحق المرأة فيما يصل بها إلى الخير ويدفع عنها الشر، فقال : «وَالرِّجَالُ عَلَى نِجْتِهِمْ دَرَجَةٌ»⁽⁴⁸⁾، وهذه الدرجة ليست درجة السلطان، ولا درجة القهر، وإنما هي درجة الرياسة البيتية الناشئة عن عهد الزوجية وضرورة الاجتماع، وهي درجة تزيد في مسؤوليته عن مسؤوليتها، فهي ترجع في شأنها وشأن ابنائها وشأن منزلها إليه، تطالبه بالإنفاق، وتطالبه بما ليس في قدرتها، وما ليس لها من سبيل إليه،

وأساسها ما أشارت إليه الآية الكريمة التي تقول : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾⁽⁴⁹⁾.

من هذا العدل النبوي الناطق في حكمه لصالح كل من علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة ابنته، ومعاملة عمر بن الخطاب الرائعة مع امرأته، وجهود الفقهاء المتواصلة لإبراز حقوق المرأة على الرجل، وحقوق الرجل على المرأة بكيفية متساوية، يبرز اعتزاز المرأة المسلمة بدورها الرائد في عالم المسلمين بفضل آيات القرآن الكريم العديدة والأحاديث النبوية الشريفة، المعبرة عن العدل الإسلامي في اعتباره المرأة شريكة الرجل في الحقوق والواجبات.

وهذا كله في الوقت الذي نجد فيه أوروبا الحضارة والتقدم متخلفة تخلفاً فظيماً في ميدان حقوق المرأة، بحيث كانت حتى القرن الثامن عشر لا تزال مختلفة حول ما إذا كانت المرأة إنساناً أم غير إنسان، وحتى إذا لم تكن إنساناً في نظرها، فهل هي سلعة تباع وتشترى في الأسواق كالخضر والملابس والحيوانات ؟ وحول هذا التخلف نشرت جريدة الضياء المصرية سنة 1920 خبراً جاء فيه : «أن رجلاً انكليزياً باع زوجته بخمسة عشر بنساً نقداً وعداً، ولما عرضت هذه القضية على القضاء، ترفع محامي الدفاع أمام المحكمة وقال : إن موكله ليس مسؤولاً عن شيء حين باع زوجته لأنه استعمل حقه الذي نص عليه القانون البريطاني، وبعد البحث والتداول أصدرت المحكمة حكمها بقرار تاريخي شهير قالت فيه : صحيح أنه كان في بريطانيا قانون يبيع الزوجات، إلا أن هذا القانون جرى إلغاؤه قبل مائة سنة»⁽⁵⁰⁾.

وأمام هذا التخلف الغريب، نجد الإسلام يقرر قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أنه لا فرق في الإنسانية بين الرجل والمرأة في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، [النساء، 1].

وما زال هذا التوحد لم يندفع في أوربا إلى الأمام، رغم بعض المظاهر التي تستعمل هناك، كقيام الرجل بتقديم امرأته قبله في الدخول والخروج من الاجتماعات والولائم والحفلات، وكمبادرته حين السلام عليها، بالانحناء وتقبيل يدها، وكمسارعته إلى تلبسها معطفها، ومناولتها قبعتها إلى غير ذلك مما لا يتعدى حدود الشكل الذي لا يتناول المضمون، ولا يتجاوز أدب الظاهر إلى حقيقة الجوهر.

ورغم هذه المظاهر الكاذبة نجد المرأة الأوربية تفقد من حريتها وكرامتها وحقوقها الشيء الكثير، ويتجلى هذا فيما يطبق عليها إلى اليوم عند الزواج بحيث يجب عليها أن تتخلى اجتماعيا عن نسبتها لأبيها وأُمها واسم عائلتها بمجرد ما تتزوج من رجل ما، وينتقل فوراً لقبها من لقب أبيها إلى لقب زوجها، ويصبح اسمها : مدام فلان، اسم الزوج، وهذا لا يكون قاصراً على الشكل الاجتماعي، بل يتعداه إلى جوهر كل المعاملات، الأمر الذي يدل على شكل من أشكال عبودية المرأة في العصر الحاضر⁽⁵²⁾.

وأمام هذا نجد المرأة في الإسلام لها الحق كل الحق في التعلم والتعليم والتأديب والتأديب، وكان منهن راويات الأحاديث النبوية والآثار، يروي عنهن الرجال الأعلام، وكان منهن الأديبات والشاعرات والمؤلفات في العلوم والفنون المختلفة وكان الناس منذ صدر الإسلام يعلمون أيضاً جواريتهم وفتياتهم كما يعلمون بناتهم، بل إن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب زوجة رسول الله ﷺ قد تعلمت الكتابة على يد الشفاء بنت عبد الله المهاجرة القريشية العدوية.

وقد بلغ من حرص النبي ﷺ وعنايته بتعليم النساء وتربيتهن أن ذكر فيما يؤتيهم الله أجرهم مرتين يوم القيامة، قوله : «أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران».

وللمرأة الحق كل الحق كذلك في كل أنواع التملك مالا وعقارا وحلية وسلعة وبضاعة للتجارة والصناعة والزراعة وغير ذلك، وقد أبطل الإسلام كما قال السيد رشيد رضا في كتابه : «نداء إلى الجنس اللطيف» كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن، أو استبداد أزواج المتزوجان منهن بأموالهن، فثبتت لهن حق التملك بأنواعه، والتصرف بأنواعه المشروعة، وشرع لهن الوصية والإرث كالرجال تماما وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك، ويتبع هذا حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره، أي باللجوء إلى القضاء والمحاكم وغيرها من الأعمال المشروعة.

وهذا مما لا تزال المرأة الأوروبية مقيدة بإرادة زوجها إلى الآن في جميع التصرفات المالية والعقود القضائية، والغريب أنه بالرغم من صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يطالب بإلغاء أي تمييز للرجال على المرأة، والذي وقعت عليه الدول الأوروبية وغيرها، فإن القوانين الوضعية في معظم دول العالم بما في ذلك معظم الدول الأوروبية، لا تزال تمنع على المرأة حرية التجارة، وحرية التصرف بمالها إذا كانت متزوجة. بل إن قانون التجارة في لبنان لا يزال لحد الساعة يمنع في مواده : 11-12-13-14 حق ممارسة التجارة والتصرف بالملك على السفينة والغافل والمجنون والمرأة المتزوجة⁽⁵³⁾.

وإزاء هذا تجد المرأة في الإسلام لها الحق كل الحق بالمساواة مع الرجل، وقد أعطاه الله كل هذا في كتابه الكريم حيث قال في سورة البقرة : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾⁽⁵⁴⁾.

وقد تحدث السيد محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية فقال : إنها تتضمن قاعدة كلية ناطقة بما للمرأة من مساواة مع أخيها الرجل في جميع

الحقوق والواجبات، إلا الدرجة الخاصة بالرجال، والمفسرة في سورة النساء بقوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، وتتجلى ميادين هذه المساواة بالمعروف بين الناس في معاملاتهم ومعاشراتهم وما يجري عليه عرف الناس التابع لشرائعهم وعقائدهم وأدابهم وعاداتهم، وتعطي هذه القاعدة للزوج أيضا ميزانا يزن به معاملاته لزوجته في جميع الشؤون والأحوال، بحيث كلما هم بمطالبتها بأمر من الأمور، وجب عليه أن يؤدي لها مثله بازائه على الشكل الذي وضعه ابن عباس رضي الله عنه بقوله : «أني لأتزين لامرأتي كما تترين لي»⁽⁵⁵⁾.

وتدل المثلية الواردة في الآية على أن الحقوق بينهما متبادلة، وأنهما أكفاء فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله، إن لم يكن مثله في شخصه فهو مثله في جنسه، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال، وفي الشعور، والإحساس والعقل، بحيث يراعي كل منهما الآخر في تفكيره وفي مصالحه وفيما يلائمه ويحبه ويسر به، وما لا يلائمه وينفر منه، وليس من العدل أن يستبد أحد الصنفين، ويتحكم في الآخر، ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه في مصالحه، لا سيما بعد عقد الزوجية الذي يفتح عليهما باب حياة مشتركة لا تكون سعيدة إلا باحترام متبادل، ومسائر الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ : «لو كنت أمرا لأحد أن يسجد لأحد من دون الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» رواه ابن ماجه وأحمد.

أما الدرجة المفسرة في سورة النساء كما يقول السيد رشيد رضا نقلا عن الشيخ محمد عبده فالمقصود بها مسؤولية الإشراف على الأسرة التي هي حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف حتى لا يعمل كل ضد الآخر، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام، وبما أن الرجل هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها، فلا بد أن يكون أعلم بالمصلحة ليسعد الجميع وأقدر على التنفيذ بوسائله ليعم الاطمئنان وتقبل المرأة على الرياسة الفعلية في التدبير والتقدير⁽⁵⁶⁾.

ويقول السيد محمد الغزالي في معنى «القوامة» أن الذي يتدبر القرآن الكريم يحس بالمساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطى الرجل حقا أكثر فلقاء واجب أنقل، لا لتفضيل طائش. وقوامة الرجل في البيت، لا تعني ضياع حق المساواة الأصلية، كما أن طاعة الشعب للحكومة لا تعني الطغيان والإذلال، ونتائجها كلها تهدف إلى حماية الأسرة والمرأة بالخصوص⁽⁵⁷⁾.

هذه هي المساواة التي قررها القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة، بينما بقيت الدول الأوروبية الراقية والمتحضرة إلى ما قبل مائتي سنة في تخلفهم، رغم بحثها المتواصل في الموضوع والذي لم يمكنها من فائدة تذكر اللهم إلا ما اجمعت عليه أخيرا واعترفت به مضطرة من أن المرأة إنسان، ولكنها خلقت لخدمة الرجل⁽⁵⁸⁾ حدث هذا في فرنسا قبل مائتي سنة، بينما كان الرجال في بريطانيا في الوقت نفسه يبيعون زوجاتهم بيع السلع بالبنسات والقروش، لا بالجنيهاً والذهبيات وذلك بموجب قانون لم يلغ - كما ذكرناه آنفاً - إلا منذ مائة سنة.

أهذه هي المساواة التي يتبجح بها الغرب في الحقوق بين الرجل والمرأة منذ قرون؟ وهل تحسنت الحالة اليوم أم ما زالت دار لقمان على حالتها؟ الواقع أن المساواة بين حقوق المرأة والرجل، ما زالت مفقودة لدى عموم الأوروبيين حتى يومنا هذا، الأمر الذي يثير الاستغراب حقا رغم التطور الواقع في الأزمان، والتفتح السائد في الأذهان، والتنافس المحرك للإنسان، ولماذا لم ينسلخ الرجل عن أهله أو أسرته مثلما انسلخت المرأة عن أهلها وأسرته عند الزواج، لماذا لم يقبلوا على استعمال (مسيو فلانة) كما اعتادوا النطق بمدام فلان⁽⁵⁹⁾.

إذا قارنت هذا بما عليه المرأة المسلمة، تدرك أن الإسلام هو الذي انصف المرأة ومنحها كل خير، وصانها من كل شر، فقد ظلت منذ ألف وأربعمائة سنة، مساوية للرجل في تمسكها باسم أبيها وأسرته وكرامتها الشخصية والعائلية،

بحيث لم يكتب عليها أن تصبح ذيلا للرجل، ولو كان ذلك الرجل أعظم العظماء، فهذه عائشة الصديقية، قد ظل اسمها عائشة بنت أبي بكر الصديق رغم أنها تزوجت أعظم عظماء البشر محمد بن عبد الله ﷺ وكذلك فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ تزوجت علي بن أبي طالب وظل اسمها فاطمة بنت محمد.

وكذلك صفية بنت حيي تزوجها رسول الله ﷺ بالرغم من أن أباهما حيا كان يهوديا وقتله النبي لغدره ونكته بعهدة فقد بقيت حاملة اسم أبيها ومعترزة به.

وأمام هذا كله أصبح أمر الدرجة التي يقف عندها إحساس بعض النساء الباحثات أمرا منطقيا ومشروعا، إذ ليس فيه ما ينقص من مشاركة النساء للرجال، في الشعائر الدينية والأعمال الاجتماعية والسياسية، فقد شرع لهن أكثر من ذلك، حينما أثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة مع المومن بقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، [التوبة، 71].

ويدخل في الولاية المطلقة مع المومنين، ولاية كل من الأخوة والمودة والتعاون وولاية النصره الحربية، والنصرة السياسية، ورغم أن الشريعة اسقطت وجوب القتال عن النساء فإن نساء النبي وأصحابه يخرجن في الغزوات مع الرجال يسقين الماء، ويجهزن الطعام، ويضمنن الجراح ويحرضن على القتال، وقد ثبت في الحديث أن بنت رسول الله فاطمة الزهراء كانت تحمل قرب الماء هي وأم سليم وغيرها إلى الجرحى في غزوة أحد يسقينهم ويغسلن جراحهم، ولما جرح رسول الله ﷺ تولت بنته فاطمة غسل جرحه وتضميده.

وكما قال السيد رشيد رضا فإن من حقوق النساء السياسية، ما قامت به السيدة أم هانئ حينما أجارت أو أمنت أحدا من الأعداء المحاربين يوم فتح مكة، ولما أراد أخوها علي كرم الله وجهه قتله، شكته إلى رسول الله، وقالت له : انني

أجرت رجلين من أحمائي، فقال لها رسول الله ﷺ : أجرتنا من أجرت يا أم هانئ، ومن هذه الولاية المطلقة التي جعلت النساء يشاركن الرجال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء كان بالقول أو بالكتابة أو الخطابة. ما قامت به السيدة خولة بنت ثعلبة لدى الرسول ﷺ بعدما تشاجرت مع زوجها أوس بن الصامت وقال لها : أنت علي كظهر أمي، أقلقته هذه الكلمة واعتبرتها شيئاً يستوجب التحريم، فعرضت الأمر على النبي ﷺ وهو في بيت عائشة شاكية وقائلة : يا رسول الله إن أويساً من قد عرفت، استغل شبابي ونثر بطني وأنهك قوتي ولما أصابه الكبر والضعف قال لي : ما سمعت دون أن يذكر طلاقاً، فقال لها رسول الله ﷺ : ما أراك إلا قد حرمت عليه، وبعدهما جادلت الرسول ﷺ حول فتواه وحكمه، رفعت شكواها إلى الله عز وجل، وقالت : اللهم أني أشكو إليك شدة وجدى، وما سأعرض له من فراق أوس الذي عزم على أن يتركني وولدي، اللهم انزل على لسان نبيك ما يكون لنا فيه فرج، وكانت المرأة في غاية التأثر، حتى أن عائشة ومن كن معها بكين من شدة التأثر، لأنها تريد ارضاء زوجها رغم ضعفه وسنه المتقدم، ولا تريد غضب ربها للكلمة التي قالها الزوج ناسياً كل العمر الذي ولى، ولم تكد تغادر بيت الرسول ﷺ حتى نزل عليه قول الله عز وجل : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ، إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْأَلْيَاءُ وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (60).

ومن ذلك ما قامت به الصحابية الجليلة : نسيبة بنت كعب الأنصارية في الدفاع عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد، إذ كانت تقوم بسقيا الجنود، ولكنها لما هاجم خالد بن الوليد هجوماً مفاجئاً على جيوش المسلمين من الخلف، فالتفتت ورأت رسول الله ﷺ، معرضاً لسيوف الكفار، ألقت القرية، وأخذت أقرب سيف، وبدأت تضرب وتجالد عن الرسول وهي تصيح بابنيها : يا حبيب، يا عبد الله، ردوا عن رسول الله، والرسول ﷺ يقول : من يطيق ما تطيقين يا أم عمار ؟

وبثباتها وقتالها مع المسلمين، تفرق الكفار، وابتعدوا عن رسول الله ﷺ فقال الرسول، سلي يا نسيبة، فقالت نسيبة : أسألك رفقتك في الجنة، فقال : اللهم اجعلها رفيقتي في الجنة، ولحق الرسول بربه، وخرجت نسيبة في خلافة أبي بكر مع خالد بن الوليد للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله.

ومن ذلك الوقفة التاريخية والبطولية التي وقفتها السيدة أمنة بت قيس الغفارية التي أكبر الرسول ﷺ حسن بلانها في غزوة خيبر وقلدها بعد انتهاء هذه الغزوة قلادة تشبه الأوسمة الحربية في العصر الحاضر وظلت تزين بها صدرها طول حياتها ولما ماتت دفنت معها عملاً بوصيتها⁽⁶²⁾.

ومن ذلك دفاع المرأة القرشية المعترضة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما تغالى الناس في المهور، وحددها بأربعمائة درهم، قائلة له : أما سمعت ما أنزل الله حين قال : «وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً»، فقال عمر : غفرانك اللهم، كل الناس أفقه من عمر، أصابت امرأة، وأخطأ عمر، فصعد المنبر وأعلن رجوعه عن قوله⁽⁶³⁾.

ومن ذلك العمل الرائع، والجهاد الناصع اللذان أنجزتهما الصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد تلك الصحابية المبايعة والمجاهدة⁽⁶⁴⁾ والشجاعة والخطيبة المصقاعة، أوفدتها النساء إلى رسول الله ﷺ وتقدمت إليه وهو بين أصحابه فقالت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله، إني رسول من ورأي من جماعة المسلمين، كلهن يقلن قلولي، وعلى مثل رأيي. «إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمننا بك واتبعناك، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وأن الرجال فضلوا بالجمعة والجماعات، وشهود الجنائز والجهاد في سبيل الله، وإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤال عن دينها من هذه ؟ فقالوا : بلى والله يا رسول الله، ما ضننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها فقال : « انصرفي يا أسماء، واعلمي ومن وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته، يعدل كل ما ذكرت للرجال».

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله ﷺ، وروي عنها أنها قالت :

مرّ بي النبي ﷺ وأنا في جوار اتراب لي، فسلم علينا وقال : «إياكن وكفران المنعمين» وكنت من أجرئهن على مسأّته، فقلت يا رسول الله، وما كفران المنعمين ؟ قال : لعل إحداكن تطول أيمتها بين أبويها، ثم يرزقها الله زوجا، ويرزقها منه ولدا، فتغضب فتكفر فتقول : ما رأيت منك خيرا قط⁽⁶⁵⁾.

اشتركت رحمها الله تعالى في معركة اليرموك وبلت بلاء حسنا، وقتلت تسعة من الروم بعمود فسطاطها⁽⁶⁶⁾ راجية الحسنى وزيادة.

ومن ذلك ما أنجزته أم سليم الرميضاء الأنصارية الخزرجية أم خادم النبي ﷺ أنس بن مالك من موقف شريف حينما كرمت دينها واعتبرت إعلانه من أبي طلحة صداقها حينما خطبها، بعد موت زوجها الأول مالك بن النضر، وما عبرت عنه من إخلاص في جهادها يوم حنين إذ سأّلها رسول الله عن الخنجر الذي حملته وقالت له : يا رسول الله «إن دنا منى مشرك بقرت به بطنه»، وما ضربته من مثل رائع في حسن استقبال القضاء والبلاء مع زوجها أبي طلحة، حينما توفي ولداها، وأخبرت أفراد عائلتها أن لا يخبروا زوجها بذلك، ليتمكن لها أن تهيب أمرها حتى تخبره بأسلوب مقبول.

وبعدما رجع من المسجد، سيرت له عشاء فتعشى، ثم أصاب من أهله، فلما كان من آخر الليل قالت : يا أبا طلحة، ألم تر آل أبي فلان استعاروا عارية

فمنعوهما، وطلبت منهم فشق عليهم، فقال : ما أنصفوا، قالت : فان ابنك كان عارية من الله فقبضه، فاسترجع وحمد الله فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال : «بارك الله لكما في ليلتكما، فحملت بعبد الله بن أبي طلحة فولدت ليلا. وذكر أنس أن أمه أم سليم أرسلت به معه إلى النبي ﷺ وأعطت له ثمرات عجوة ليحنكه، ولما قدمه لرسول الله ﷺ وأخبره أن أم سليم ولدت الليلة، أخذ منه الثمرات ومضغها بريقه، فأوجره إياه فتلمظ الصبي فقال الرسول ﷺ : «حب الأنصار التمر»، فقلت : سمه يا رسول الله، فقال : هو عبد الله⁽⁶⁷⁾.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يزور أم سليم، تتحفه بالشيء تصنعه له، وأخ لي أصغر مني يكنى أبا عمير، فزارنا يوما فقال : مالي أرى أبا عمير خائر النفس ؟ فقلت له أم سليم : ماتت صعوة له كان يلعب بها، فجعل النبي يمسح رأسه ويقول : يا أبا عمير ما فعل النغير ؟

وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : «قال رسول الله ﷺ، رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة، فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا بلال⁽⁶⁹⁾.

وإذا كان هذا النتاج الرفيع من المومنات الصادقات صادرا عن المكانة التي أعطاهها الإسلام للزواج وتنويه القرآن بأمره تنويها جعل كل طرف مندمجا في صاحبه اندماجا ملقحا بالسلوك النبوي الداعي إلى المعاملة الخيرية والرفق بالقوارير فإن الأسرة الإسلامية الموفقة، لعاملة منذ البداية لتحقيق الهدف الرباني في الحياة وجعل التوجهات النبوية في المكاثرة الجيدة هي أسمى الغايات، انطلاقا من الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ : «تزوجوا الودود الولود» «فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

لهذا يجب أن تصيخ الأمة الإسلامية لهذا التوجيه، وتلتزم بهذا السبب الوجيه، وليس النبي ﷺ في هذا الأمر بدعا من غيره، بل هو عادة الأمم، وسنة الأنبياء والمرسلين، وكل من علم أخبار أبينا إبراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان يكون على يقين من أمره لديهم والتعدد فيه، ومن أطلع على السيرة النبوية والأسباب الداعية إلى سلوك طريقه، يباركه ويعمل على الاقتداء به، إذا كان مهيبا وقادرا على تحمل أعبائه.

وإذا كان الرسول ﷺ هو المتلقى لكلمة الله والمبين لها للناس فإنه بعدما تلقى شريعة التعدد أمر الذين دخلوا في الإسلام وكان تحت أيديهم أكثر من أربع زوجات، أن يختار كل واحد أربعاً من زوجاته، ويفارق الأخريات منهن، وذلك ما فعله مع كل من الحارث بن قيسر وغيلان بن سلمة الثقفي رضي الله عنهما، أما هو فقد بدأه ﷺ بزوجه عائشة قرب نهاية العام الهجري الأول، وأنهاه بزوجه ميمونة قرب نهاية العام الهجري السابع بأمر من الله الذي قال في كتابه : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾⁽⁷⁰⁾.

ويقول الدكتور «انظمى لوقا» في تقرير عام عن زوجات النبي ﷺ ما يلي : «هؤلاء زوجاته اللواتي بنى بهن وجمع بينهن، لم تكن واحدة منهن هدف اشتها كما يزعمون، وما واحدة منهن إلا كان زواجه بها أدخل في باب الرحمة وإقالة العثار والمواساة الكريمة، أو لكسب مودة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة وهي بعد حديثة عهد بالدين الجديد⁽⁷¹⁾.

وقد أحسن مالك بن بني حين يرى أن الواجب دراسة قضية التعدد حسب مقاصدها ومآلاتها الشرعية والمصالح العليا التي تقوم بالخير على المجتمع، على أنه لا يوافق أي مسلم على تعدد الزوجات على النحو الذي يضر المجتمع ويفتت وحدة الأسرة وأخلاقيها.

وما زالت هذه السنة مفيدة في نشر الرحمة وتلطيف الأجواء في هذا العصر الذي يعرض الناس فيه عن الزواج لأمر تحتاج إلى علاج ودواء، وما أكثر الناس الذين يرغبون في تجديد هذه السنة اليوم، ولكنهم يستحيون - كما يقولون - من محيطهم الحافل بنقاد لا يرحمون، فقد صرح لي بعض الميسورين في أكدير، بأنه راغب في التعدد وقادر على تحملاته، ولكن النقاد كثير، ولو أراد الله بي وبأمثالي خيرا - يقول الميسور المذكور - لتأسست جمعية تدعو إلى الزواج والإكثار منه، بالشروط المقررة فيه كسنة من سنن الأنبياء والمرسلين ولهذا أرى أن تنطلق الفكرة من هذه الأكاديمية التي أرادها مؤسسها مولانا الحسن الثاني رحمه الله، وسيلة لنشر الخير والفضل بين الناس وأن تتجدد في هذا الوقت هذه الرحمة الإسلامية التي طبقها عمليا مولانا محمد السادس نصره الله بخبرة الدكتورة الزميلة السيدة رحمة بورقية، وتعمل على تأسيس جمعية لإنعاش فكرة الزواج والإكثار منه في مختلف الأوساط التي تعاني الجفاف القاتل والإعراض المهول عن هذه السنة المأمور بها في الإسلام، وسأكون إن شاء الله من المناصرين لها في هذا العمل الجليل، لأنني أدرك جيدا قساوة المرارة التي عانتها المرأة العربية التي قالت : «زوج من عود، خير من قعود».

الهوامش

(1) سورة «يونس»، آية 67.

(2) سورة «القصص»، آية 71-72.

(3) سورة «الداريات»، آية 49.

(4) سورة «النساء»، آية 1.

(5) سورة «النساء»، آية 32.

(6) البخاري.

- (7) سورة «التحريم»، آية 10-11.
- (8) سورة «النمل»، 36.
- (9) سورة «الروم»، آية 21.
- (10) سورة «النحل»، آية 72.
- (11) انظر كتاب «المرأة المسلمة بين التكريم الإسلامي والامتهان الحضاري»، لأحمد الوافي، ص 149.
- (12) أحمد الوافي، «المرأة المسلمة بين التكريم الإسلامي والامتهان الحضاري»، ص 151.
- (13) «تعاليم الإسلام»، ص 100.
- (14) قال في «لسان العرب»، في مادة نصح ج 356 المناصب المواضع التي يتخلّى فيها لقضاء حاجة الناس، الواحد منصع وهو مبرز النساء في المدينة قبل أن تسوى الكنف في الدور.
- (15) الحديث من الصحيحين وقد أورده الإمام ابن الجوزي في كتابه «تاريخ عمر بن الخطاب»، طبع دار الرائد العربي بيروت، ص 19-20.
- (16) رواه مسلم وحققه الألباني في مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، رقم الحديث 1435.
- (+) رواه مسلم ورواه الحافظ المنذري تحقيق الألباني رقم الحديث 1633.
- (17) «تعاليم الإسلام»، ص 104.
- (18) «تعاليم الإسلام»، ص 104.
- (19) «تعاليم الإسلام»، ص 112.
- (20) سورة «طه»، 115.
- (21) سورة «طه»، 121-122.
- (22) سورة «الحجرات»، آية 13.
- (23) سورة «النساء»، آية 36.
- (24) سورة «الإسراء»، آية 23.
- (25) سورة «لقمان»، آية 14-15.
- (26) محمد شلتون «الإسلام عقيدة وشريعة»، ص 220-221.
- (27) رواه البخاري.
- (28) سورة الشورى، آية 49-50.

- (29) سورة «النحل»، آية 72.
- (30) سورة «النحل»، آية 58-59.
- (31) سورة «الأنعام»، آية 151.
- (32) سورة «النساء»، آية 124.
- (33) سورة «أل عمران»، آية 195.
- (34) سورة «البقرة»، آية 35.
- (35) سورة «الأنبياء»، آية 90.
- (36) سورة «الرحمان»، آية 1-2.
- (37) سورة «العنكبوت»، آية 8.
- (38) سورة «النجم»، آية 39.
- (39) سورة «التوبة»، آية 71.
- (40) سورة «التوبة»، آية 67-68.
- (41) «الإسلام عقيدة وشريعة»، ص 223-224.
- (42) رواه الإمام البخاري.
- (43) سورة «النساء»، آية 20-21.
- (44) «أحكام الأسرة في الجاهلية والإسلام»، ص 110-115.
- (45) سورة «النساء»، آية 4.
- (46) الوجاء يطلق على رض عروق الخصية من غير إخداج فيكون تشبيها بالخصاء لأنه يكسر الشهوة : انظر المصباح.
- (47) «الإسلام عقيدة وشريعة»، ص 155.
- (48) سورة «البقرة»، آية 228.
- (49) سورة «النساء»، آية 34.
- (50) بشير العوف، «تعاليم الإسلام بين المعسرين والميسرين»، ص 227.
- (51) نفس المرجع.
- (52) بشير العوف «الإسلام بين المعسرين والميسرين»، ص 298.

- (53) «تعاليم الإسلام» للسيد بشير العوف، ص 305.
- (54) سورة البقرة آية 228. راجع كتاب «حقوق النساء في الإسلام» للسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، ص : 17-42، طبع المكتب - الإسلام بيروت - «تعاليم الإسلام بين الميسرين والمعسرين» للسيد بشير عوف.
- (55) «تعاليم الإسلام»، ص 306.
- (56) «تعاليم الإسلام»، ص 308.
- (57) محمد الغزالي : «قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والوافدة»، ص 36.
- (58) «تعاليم الإسلام» لبشير العوف، ص 302.
- (59) «تعاليم الإسلام»، ص 303.
- (60) سورة المجادلة، آية 1-2، زكي علي «المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام»، ص 135.
- (61) «تعاليم الإسلام»، ص 311.
- (62) «المرأة في الإسلام» للدكتور وافي، ص 31.
- (63) «تعاليم الإسلام بين المعسر والميسرين»، ص 311.
- (64) «رجال ونساء حول الرسول»، ص 452.
- (65) «البداية والنهاية»، 7/13.
- (66) «سير أعلام النبلاء»، 2/297.
- (67) ذكره البخاري ومسلم.
- (68) أخرجه البخاري وابن سعد (427/7).
- (69) أخرجه البخاري ومسلم.
- (70) الأحزاب 52، «مختصر تعبير الطبري»، ص 542.
- (71) أحمد عبد الوهاب، «تعدد نساء الأنبياء»، ص 62.

